الجمهور الجديد

العدد ٩٩
في ٢ كانون الثاني
١٩٥٥

ميشال شيحا اللبناني الاكبر

ميشال شيحا ، اللبناني الكبير في نظر مواطنيه ، واللبناني الاكبر في نظرنا ، قد غاب نهائياً .

واغمض جفنيه للمرة الاخيرة مع فجر امس الاربعاء ، الى الابد . ولا اعلم اية صورة اخيرة حمل الجفنان المتعبان في اغماضهما ، ولكني اعلم ان نوافذ الصومعة القصرية التي كان يعتزل فيها ، في الارزة ، تطل على الجبل والسهل والبحر .

ولا سيما على هذا البحر الكبير ، الكبير ، الذي فتنته حضارته وانسانيته وتواريخه .

ويا عجبا ، كيف يعاكس المفكر ، لاول مرة منذ بدأ وجوده ، منطق الواقع : فهو يعرف ان معالم الحياة كلها تبدأ مع الفجر . وكم سمع خلال سنوات طويلات ، بلابل الروض واجراس القرى ومآذن المدينة تدعو الناس لاستقبال الحياة في هذه الساعة — هذه الساعة ، بالذات ، التي اختارها للسفر .

انه يعرف ان الفجر انما هو بدء سير القطار الى الحياة .

ولاول مرة يعكس المفكر منطق الحياة ، فيستقل الفجر قطاراً الى الموت !

ويحدث سفره هزة ، وغصة ، وحسرة ، حتى في العامة التي كان بعيداً عنها ، اذ يعيش في برج الحكمة — مع كتابه .

وميشال شيحا ، هذا الزميل الحبيب ، المجل الرأي والشخص ، الذي « انبلع » لبنان الفكر كله ، على اختلاف اتجاهات الفكر فيه ، ساعة سمع نعيه ، كان يستحق هذه الحسرة العميقة ، وهذه اللوعة العامة الدامعة التي مسكت بالقلوب ، لان لبنان يعرف مكانته .

وحسبه من كبره ان زملاءه الذين لا يجارونه في ارائه كلها — وانا واحد منهم — قد ضغط نعيه على صدورهم ، وشعروا

بانهم فقدوا شيئاً عزيزاً ، كأنه « منهم » . وشعروا فجأة بان عيونهم تبللت . ولاح لهم موكبه يمشي غير مشية المواكب وانه يقود جزءاً منهم ، من « صميمهم » .

فلقد ضعفوا .. ضعف الاقوياء امام النبأ .

وقرأت جميع ما كتبته عنه الصحف في هذا الصباح المشؤوم ، وتوقعت قراءة ما قرأت ، لاني اعرف ان زملاءنا جميعاً ، حتى الذين في الجبهات الاخرى ، يرون فيه لبنانياً كبيراً .

وكنت اراه اللبناني الاكبر .

ذلك لاني لم اعرف لبنانياً من المدرسة التي ينتمي اليها — اللهم ، باستثناء صهره الرئيس بشاره خليل الخوري — مقتنعاً ، مثله ، بان المصلحة العربية تقوي لبنان ، وبان لبنان مع حفاظه الاكمل على طابعه وكيانه الممتازين ، مرتبط عملياً وحيوياً باكثر من رابطة بالعرب .

وكان مخلصاً لهذا الاقتناع .

ولقد عرف الناس ، جميع الناس ، اي شرف كان يربط ميشال شيحا عندما يعلن رأياً . وهكذا واصل دفاعه عن فلسطين ، وعروبتها ، ومنكوبيها ، حتى مقاله الاخير ، بعد ان « طنش » الكثيرون من المتزعمين والمترئسين والمستقطبين ، هنا وهناك وهنالك .

وواصل مقالاته الرائعة ، واي قلم غني قلمه ، في لا شرعية قيام اسرائيل حيث قامت . وواصل المقاومة حتى النفس الاخير ، بينما بعض المتزعمين والمترئسين والمستقطبين — ولا سيما هنالك ... — يداورون ، ويغشون العرب لاجراء صلح مع اسرائيل .

وظلت صيحاته الرصينة في تأييد المطالب العربية التي يراها مشروعة — مدوية . حتى اغمض جفنيه .

وكان المنبر الذي يرسل منه تلك الصيحات الشريفة في الزميلة « ليجور » محاطاً بوقار الاسم الذي يحمله عنواناً للصراحة والجرأة والصدق والثبات .

وهذه الزاوية في « كيانه العقائدي » الزاوية العربية — رافقته الى القبر .

ومن هنا بدأ يكون اللبناني الاكبر .

فالوطنية اللبنانية الكبرى التي تبدأ عندنا هنا ، وتنتهي عندنا هنا ، لها امتدادات الى هناك ، وهنالك ، انى ينطق بالضاد ، وانى لنا اخوان .

ومن هنا ايضاً تبدأ حسرتي عليه .

وعلى هذا يصح القول : ان الذين خسروا ميشال شيحا هم اخواننا العرب ، في الدرجة الاولى ، اذ خسروا الصوت القوي الذي كان الغرب يعرفه صادقاً ويصغي اليه .

وهيهات ان نسمع صوتاً في لبنان من طبقته .

والى ان يجود الزمان بميشال شيحا ثان ، نظل نشعر بفداحة الخطب .

وشبه عزاء لنا : انه اغمض جفنيه للمرة الاخيرة على الجبل والسهل والبحر من لبنان ، فاقترب من الله الذي لم يعبد سواه .

ولبنان بعض الطريق الى السماء .

ميشال شيحا ، ايها الزميل الحبيب ، ايها اللبناني الاكبر ، مع السلامة !

« الجمهور الجديد »